العمل الصالح في القرآن

محمد باقر الصدر

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين » .

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ، شاهدين على أنفسهم بالكفر ، اولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون » .

« إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك من المهتدين »

« من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليهـــا ، ثم إلى ربكم ترجعون »

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً »

* * *

لسنا نريد — ونحن نعيش لحظة في ضوء هذه الآيات الكريمة — : أن ندرس قيمة العمل في نظر الاسلام من وجهة النظر الاقتصادية ، أو أن نبحث عن موقف الاسلام من الطابع البضاعي للعمل في السوق الرأسماليـــة ، التي

يعرض فيها الاجراء أعمالهم بوصفها بضاعة تباع وتشرى ، وتخضع لقوانين العرض والطلب كسائر السلع السوقية .

لا نريد أن نتناول شيئاً من هذا، وإنما نتركه لمجاله الاوسع في كتاب اقتصادنا ، لان الآيات الكريمة التي نقف فى ظلالها الوارفة هذه اللحظات ، ونريد أن نستلهم مدلولات بحثنا هذا منها . . لاتكشف عن الوجه الاقتصادي للعمل في نظر الاسلام ، وإنما تعبرعن مقياس أعلى وأرفع وأكثر شمولا للعمل الانسانى بصورة عامة ، ولا تختص بذلك النوع المأجور من العمل الجدير بالدرس الاقتصادي الخالص .

فنحن إذن ازاء تقدير الاسلام لقيمة العمل ـ أي عمل ـ من وجهة النظر الانسانية والقيم الخلقية التى يؤمن بها ، لا من وجهة النظر الاقتصادية التى تعالج طبيعة العمل المأجور ، ودوره الخلقي في الانتاج ونصيبه العادل من التوزيع . وبكلمة اخرى : ندرس الآن تسعيراً اخلاقياً للعمل البشري ، لا تسعيراً اقتصاديا .

فما هو العمل الانسانى الجدير بالاعجاب والاحترام ؟ ، أو ما هي المقاييس التى يجب اتباعها في سبيل الكشف عن قيمة هذا العمل أو ذاك ، ومدى أهميته ودرجة احترامه من الناحية الخلقية والمعنوية ؟ ؟ .

هذا هو السؤال الذى نريد الجواب عليه من ناحية الاسلام ، ونحاول الحصول على هذا الجواب من خلال الحقيقة التي تقررها الآيات الكريمة التى استمعنا اليها في فاتحة هذا المقال ، بالقدر الذى يتناسب مع درجة البحث بوصفه مقالا محدوداً .

والواقع ان الجواب على هذا السؤال من أى مذهب ، إنما ينبثق عن نوعية

المفاهيم الخلقية التى يتبناها هذا المذهب . وهذه المفاهيم تحددها بدورها طبيعة الاهداف العامة التى يرمي المذهب إلى تحقيقها . ويتكون من مجموعها المثل الذى يسعى نحو ايجاده أو تصعيد البشرية إلى مستواه .

* * *

فالحضارة الرأسمالية ـ بوصفها ذات مذهب يعني بالمصالح الحياتية للمجتمع، والجوانب الموضوعية من علاقات أفراده بعضهم ببعض ـ : ترى ان كل عمل يحقق مصلحة للمجتمع ، ويساهم في تأكيد المظهر الخارجي والاجتماعي للعلاقات بين الافراد ، وإقامتها على أساس من الحرية والمنفعة المتبادلة . . فهو عمل شريف جدير بالاحترام وفقاً لمدى توفر هذه العناصر الخيرة فيه . وكلما كانت الثمار التى يؤتيها فى الحقل الاجتماعي والحياتى العام أكثر ، كان العمل أرفع قيمة وأعظم مجداً في هذا الحساب الخلقي ، اى ان العمل يقاس بمنافعه التى تنشأ عنه لا بدوافعه النفسية التى ينشأ العمل نفسه عنها . وحيثما طغى الاتجاه النفعي فى الحضارة الرأسمالية اصبح يعد كل عمل يسير في هذا الاتجاه نبيلا ، حتى اعتبر رجل الاعمال محسناً مهما كانت دوافعه الأنانية ومشاعره الخاصة ، كما لا حظ بحق الدكتور الكسيس كارل .

فالثري النبيل يحسن صنعاً في العرف الرأسمالي إذا أشاد مدرسة ، او تبرع بمونة الشتاء للفقراء المنكوبين ، او أقرض الدولة فى إزمة من ازماتها قرضاً دون فائدة . . غير ان عمل هذا الثرى لن يصل إلى درجة العمل البطولي، الذى ينفقه قائد سياسى محنك في سبيل تحرير بلاده من الأسر السياسي ، وإعادة كرامتها المغتصبة اليها ، لان الجانب الموضوعي لهذا العمل اضخم ومنفعته في حياة الناس اكبر .

ودون هذا أو ذاك تلك الاعمال الضيقة في مفعولها التي لا تعالج إلا حاجة آنية محدودة ، كحاجة هذا الاعمى الذي يتخبط في طريقه فيخفق قلبك شفقة عليه فتأخذ بيده لترشده إلى الاتجاه الذى يريده . . فهذا عمل نبيل أيضاً ولكنه لا يصل إلى مستوى تلك الاعمال في مقاييس الاخلاق الرأسمالية، ما دام لا يتمخض عن نتائج مماثلة في أهميتها وضخامتها .

* * *

واما الماركسية : فهي تتفق مع هذا إلى حد ما وتختلف عنه بعض الاختلاف . فهي ترى أن الصراع الطبقي في داخل كيان المجتمع يجعل مصالح المجتمع متناقضة ، فهناك مصالح تدافع عنها الطبقة القديمة التي بدأت تفقد ضرورتها التاريخية وتعرقل القوى المحركة للتاريخ ، وهناك بازائها مصالح اخرى للطبقة أو الطبقات الجديدة التي نمت جرثومتها على مر الزمن ، حتى اكتملت ووقفت على قدميها تصارع الطبقة القديمة وجها لوجه ، وتطالب بحقوقها ومصالحها . فالمسألة إذن ـ باستثناء بعض الاعمال الفردية ـ ليست مسألة عمل نافع وعمل غير نافع ، بل مسألة عمل نافع للطبقة الجديدة وعمل لا ينفعها أو يعارضها . فكل عمل يحقق مصلحة ومكسباً للطبقة الجديدة فهو عمل مجيد يساهم في تطوير التاريخ ، وكل عمل يحقق مصلحة الطبقة القديمة ويعمّق وجودها الاجتماعي ويطيل من فترة صراعها واحتضارها . . فهو عمل رجعي دنيء ما دام لا يتفق مع الاهداف العليا التي تؤمن الماركسية بضرورة تحقيقها ، وهي انتصار الطبقة الجديدة وسحق الطبقة القديمة التي تعارض في زحف التاريخ إلى الأمام . فالمصلحة والمنفعة الطبقية التي يحققها العمل هي المقياس الخلقي والاساس، في تسعير العمل من الناحية المعنوية .

ولأجل ذلك قال لينين كلمته المشهورة : « لا وجود عندنا للآداب المعتبرة فوق المجتمع ، انها لاكذوبة سافرة ، فالآداب خاضعة عندنا لمنفعة نضال الطبقة العاملة . »

* * *

واما الاسلام : فهو يختلف في دراسته للمسألة ، وفي النظرة التي يتبناها عما مرت بنا من نظرات . ومرد هذا الاختلاف إلى الفروق الجوهرية بين الاهداف العالية التي يرمي الاسلام إلى تحقيقها ويستوحي منها مفاهيمه الخلقية ، وبين الغايات المحدودة التي تستهدفها مجتمعات رأسمالية ومادية .

فالاسلام يهتم بدوافع العمل لا بمنافعه ، ويرى انه يستمد قيمته من الدوافع لا من المنافع ، فلا عمل إلا بنية ، وما لم تتوفر النية الصالحة لا يكون العمل صالحاً مهما كانت منافعه التي تنشأ عنه . لان الاسلام لا ينظر إلى المظهر الخارجي للعلاقات الاجتماعية فحسب ، ولا يعنى بالجانب الموضوعي من التعايش الاجتماعي وحياة الناس فقط ، إيماناً منه بأن هذا الجانب وذلك المظهر ليس إلا صورة عن حقيقة أعمق وأخطر تعيش في داخل الانسان . وما لم يتمكن المذهب من كسب تلك الحقيقة وتطويرها وصبها في قالبها الخاص ، لا يستطيع أن يمتلك القيادة الحقيقية في المجتمع . فليس المهم في نظر الاسلام : أن يصنع علاقات اجتماعية بين الناس ذات جانب موضوعي نظيف ، أي ذات منافع وفوائد في الحقل الاجتماعي ، وإنما المهم أن يصنع إنساناً نظيفاً ويشيد علاقات نابعة من جوانب ذاتية مشرقة . وبكلمة واحدة : ان الاسلام يريد أن يصنع الانسان نفسه صنعاً إسلامياً ، فهو يتبنى لأجل ذلك تربية هذا الانسان ، ويستهدف قبل كل شيء تكوين محتواه الداخلي والروحي وفقاً لمفهومه ، بينما تتخلى الرأسمالية عن

هذه الوظيفة الاساسية وتترك الانسان ليصنع نفسه بنفسه ، وتكتفي بتنظيم العلاقات بين الناس وتهتم بالنتائج والمنافع دون الدوافع الفكرية ، والأرصدة الروحية التي تختفي وراء تلك العلاقات وتنعكس فيها .

وهكذا نجد : أن الاسلام يقيس قيمة الاعمال بالدوافع والمقدمات والاطارات الفكرية العامة التي تختمر بذرة العمل ضمن نطاقها ، بينما يقيس غيره قيمة الاعمال بالنتائج والمنافع والمجالات الحياتية التي يساهم العمل في إصلاحها.

فالاطار الفكري العام الذي يقرره الاسلام هو: الايمان بالله واليوم الآخر . والدوافع هي : العواطف والميول الخيرة التي تنسجم مع هـــذا الاطار العام ، وتندمج معه في وحدة وحية يتكون منها الانسان المسلم . والعمل الصالح هو : العمل الذي ينبثق عن هذه العواطف والميول ضمن الاطار العام .

وعلى هذا الاساس رفض القرآن رفضاً باتاً إمكان المقايسة والمقارنة : بين العمل الذي يحققه الانسان ضمن الاطار الايماني العام ، مندفعاً بالميول والدوافع الالهية التي يحددها هذا الأطار . . وبين العمل الذي يوجد بعيداً عن ذلك الاطار وينبثق عن ميول ودوافع اخرى . فان هذا العمل لا يمكن أن يقارن في المفهوم القرآني بذلك العمل مهما كانت نتائجه ومنافعه : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وقد جاء في تفسير الآية الكريمة وسبب نزولها : ان شيبة بن عبد الدار والعباس بن عبد المطلب افتخرا بعملها الاجتماعي في حماية الكعبة ورفادة الحاج ، فقال شيبة : في أيدينا مفاتيح الكعبة فنحن خير الناس بعد رسول الله ، وقال العباس : في أيدينا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام فنحن خير النـاس

بعد الرسول ، ومر بهم أمير المؤمنين علي (ع) وهما في فورة عاطفية ، فحدثاه بحديثهما معبرين بذلك عن مقاييس الجاهلية ومفاهيمها الخلقية ، فابتدرهما هذا الرجل القرآني المدرّب على مفاهيم القرآن واستيعابها في واقع الحياة قائلا : ألا أدلكما على من هو خير منكما ؟ قالا له ومن هو ؟ فقال : هو الذى أدخلكما في الاسلام وآمن بالله وجاهد في سبيله . ولم يرق هذا للعباس وشيبه فاحتكموا عند النبي صلى الله عليه وآله ، فأنزل الله الآية المباركة ليؤكد ان العمل في إطار الايمان وبدافع إلهي لا يمكن أن يقارن بأي عمل آخر خارج هذا النطاق مهما بدا عظيما ، لأن قيمة العمل تنبثق من إطاره ودوافعه لا من مظاهره الخارجي ونتائجه .

ولأجل هذا أيضاً حرم الاسلام الرياء ، واعتبر العبادة التي يجردها العابد عن الاطار الايماني والدوافع الالهية جريمة وشركا ، مهما كان أثرها في المجتمع او لونها الظاهرى . فليس من الغريب — بعد هذا — أن ينقلب عمران المسجد عملا باطلا وساقطاً ، حين يكون هذا العمران بعيداً عن الاطار والدوافع الايمانية ، كما نجد في قوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، اولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى اولئك من المهتدين . »

وكذلك حث الاسلام على صدقه السر والتكتم ببعض الوان البر ، حرصا منه على توفير المقومات الاساسية للعمل الصالح ، فهو يطلب من الفرد أن يبتعد بعمله الصالح عن مجالات الاغراء ليتأكد من صلاحه وسلامة رصيده الروحي ومدلوله النفسي ، بينما نجد المجتمعات الغربية أو غير الاسلامية في سلوكها الحياتي

والنفسي تحشد كل وسائل الاغراء لدفع الناس إلى الاعمال المفيدة ، حتى يفقد العمل المفيد كل قيمة خلقية في ضجة الاغراء المحموم . والسبب في هـذا انها لا تملك دوافع روحية حقيقية كالدوافع التي يملكها المجتمع الاسلامى الصحيح ، الذي يؤمن بربه ومعاده وارتباط الدنيا بعالم الآخرة . ومن هنا كانت القيم الخلقية مرتبطه تاريخياً بالدين منذ أبعد أدوار الحضارة البشرية إلى يومنا هذا.

وفي هذا الضوء الاسلامي قد يكون العمل الضئيل التافه في مظهره الاجتماعي أرفع وأسمى من عمل جبار يدوّي له التاريخ ، قد تكون هذه الحفنة التي يخفق بها قلبك شفقة على الاعمى حين تجده يتسكع الطريق فتأخذ بيده لترشده السبيل طلباً لرضا الله . . أفضل الف مرة من تضحية يترتب عليها أهم المصالح الاجتماعية، يدفعك إليها دافع من الدوافع المادية بعيداً عن الاطار الاجتماعي العام . . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وبهذا يفتح الاسلام السبيل أمام أي فرد — مهما كانت إمكاناته وقدرته على النفع الاجتماعي والعمل النافع — للارتقاء إلى أسمى درجة في سلّم النفس البشرية ومراحل كمالها الروحي ، ويفرض على المجتمع أن يقيم تقديراته للاشخاص على مقدار ما تكشف عنه الاعمال من أرصدة روحية ونفسية ، لا على المظاهر الخلابة الخاوية مهما بدت عظيمة .

* * *

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان : ان العرف غير الاسلامى في تقدير الاعمال أكثر واقعية من العرف الاسلامى الذى يقرره القرآن ، لأن المهم قبل كل شيء توفير مصالح المجتمع وحماية هذه المصالح . فكل عمل كان يواكب هذا

الهدف فهو عمل مجيد من مصلحتنا جميعاً أن نقدره ونمجده لنشجع على الاتيان بمثله ، وما ذا يهمنا — بعد أن نصل عن طريقه إلى مكاسب موضوعية — الدافع الذي يختفي وراءه والظروف النفسية التي اكتنفت تصميم العامل على العمل ؟! ، إن الشيء الجدير بالتقدير حقاً هو أن يشيد الغني مدرسة لا بنائنا ، لأن هذا التقدير والاعجاب سوف يشجعه في عمله فتتضاعف مكاسبنا ، ولا يهمنا أن يكون لهذا الغني طمع شخصي يدفعه ، مادام هذا الطمع يدفعه إلى فعل الخير وخدمة المجتمع .

ولكن نظرة سطحية كهذه — : تقف عند ظواهر الاعمال ولا تغوص إلى الاعماق — تختلف مع طبيعة الرسالة الاسلامية من ناحية ، ومع مفهوم الاسلام عن الارتباط الكامل بين العمل ورصيده الروحي والفكري من ناحية اخرى .

فمن الناحية الاولى : ليس الاسلام مجرد تنظيم للسلوك الخارجي ، وإنما هو رسالة تهدف إلى صنع الانسان قبل كل شيء ومنحه الحياة الجديرة به « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون : »

فالاسلام يريد أن يعطي للانسان حياة لا سلوكا فحسب ، ولا يمكن لرسالة هذه طبيعتها أن تترك المحتوى الداخلي للانسان وتنظر اليه من مظهره الخارجي فحسب .

ومن الناحية الاخرى : ينظر الاسلام إلى العمل بوصفه التعبير الخارجي عن الاطار الروحي والجو الفكري الذي نمت فيه بذرة العمل ، فلا يمكن أن يجرد عن طابع ذلك الاطار ومزاج ذلك الجو . ولا ينكر الاسلام بطبيعة الحال : ان العمل الذي ينشأ عن اطارات وفي أجواء فكرية وروحية غير

صالحة قد يكون عملا مفيداً ونافعاً ، بالرغم من كونه عملا ناشئاً عن طمع شخصي أو غرض خبيث .. ولكننا إذا سمحنا لتلك الاطارات والاجواء غير الصالحة أن تنمو وتترعرع ، في ظل قيم ومقاييس خلقية كهذه التي تسود العرف غير الاسلامي .. فمن يضمن لنا انها سوف تدفع الفرد إلى العمل المفيد والنافع دائماً ؟ ! وكيف يمكن أن نترقب حينئذ هذا العمل المفيد والنافع إذا كان يتعارض مع مصالح الفرد الخاصة وأغراضه العاجلة ؟ !

وهكذا نعرف ان ربط العمل بالمحتوى الداخلي هو الطريقة الواقعية التي تضمن استمرار العمل المفيد وتنميته والتشجيع عليه .

من هدي القرآن

* سلسلة ثقافية مبسطة بالنهج القرآني
* يحررها كاظم الحلفي
* غايتها : تنوير الذهنية العامة للمستوى الطلابي
* اشتراكها : ربع دينار يدفع مقدما
* سننها : عشرة أعداد

صدر منها :

١ — الخمر في نظر القرآن الكريم

الكتاب القادم :

الربا في نظر القرآن الكريم